

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

ادريان مونك

موقع الكاتب على شبكة الانترنت

11 فبراير 2007

Why The Public Doesn't Deserve The News

By Adrian Monck

The Writer's Website

ترجمة: علي الحارس



ادريان مونك

خبير بريطاني يدير
قسم الاتصالات
والإعلام في المنتدى
الاقتصادي العالمي.

لا يستحق الشعب البريطاني الصحافة التلفزيونية بوضعها الحالي الذي تسيطر عليه خدمة الإذاعة البريطانية الموجهة للعموم. وهذا عائد إلى أن النظام السياسي البريطاني لا يعطي أي حافز على إعلام العموم. وإلى أن فكرة إعلام العموم ذاتها هي من الأساطير التي تقيم على نحو دائم السياسة المعاصرة. وفي الواقع. تكاد لا توجد دلائل على أن إذاعة الأخبار تشكل الوسط الفريد الذي يمكن من خلاله تغيير الموقف الأخلاقي للعموم؛ رغم أن الدلائل كثيرة في دعم تقليد قديم للنقد الاجتماعي يتوهم أن في تكنولوجيا المعلومات المهيمنة عاملاً لإحداث التغيير الجذري في المجتمع.

إذن: من أين جاءت فكرة استحقاق العموم للأخبار التلفزيونية؟ يقفز إلى الذهن دائماً جواب مكون من اسم أحد الأشخاص: جون ريث (John Reith). أول مدير عام لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC). ومهندس فكرة «الإذاعة الموجهة للعموم». طور ريث فرضية تقول بأن نقص الموجات الإذاعية جعل من الإذاعة بمثابة الصالح العام: أمراً يعتنقه الجميع. وهذه نظرة احتكارية مغطاة بقشرة من الأبوية الواضحة. وراجت تحت مسمى «النقص في مكونات الطيف». وكما أن الثورة تتبع الثورة. تم تبرير هذه النظرة باعتبار الاحتكار ذاته حقيقة سياسية.¹

1) جاءت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) لتكون الحل الوسط الذي ارتأه البريطانيون لإدارة شؤون البث الإعلامي بعد تبلور نمطين أساسيين على الساحة الدولية: السوفييتي الذي ارتكز على الإدارة الحكومية المركزية، والتوجيه السياسي. والدعم الحكومي؛ والأمريكي الذي يرتكز على السوق التنافسية، والتسليية.

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

أما الإجابة الحديثة على السؤال السابق. فهي أن العموم يحتاج إلى المعلومات كي تتحرك عجلة الديمقراطية؛ فالديمقراطية تتطلب مواطننا عارفا بالأمور. وهذا الرأي له الكثير ممن يدعمونه. ومنهم الفرنسي كلود جان برتران (Claude-Jean Bertrand). وهو خبير عالمي في قوانين الإعلام. حيث يقول:

الديمقراطية تعني أن كل مواطن يمتلك حقا في المشاركة في تنظيم المجتمع. ولإنجاز ذلك على نحو ملائم. يحتاج كل مواطن إلى أن يكون عارفا بما يجري على نحو جيد. وبعبارة أخرى: لا يمكن لأي ديمقراطية أصيلة أن توجد دون خدمة جيدة من الإعلام الإخباري.

وإليك رأيا آخر من خبير آخر هو الفيلسوف الأمريكي جون رولس (John Rawls). يتجاهل فيه خمسين عاما من القرارات في مجالات الدفاع والسياسة الخارجية ليدعي أنه «من دون عموم على اطلاع بالمشكلات الضاغطة. ببساطة... لا يمكن اتخاذ قرارات سياسية واجتماعية حاسمة». وهنا نتساءل: أين يكمن الدليل على هذا الافتراض الذي يبالغ في الاحتفاء به؟

ليس هنالك أفضل من أن نبدأ بالنظرية السياسية العامة. غير أنها تقلب الأمور رأسا على عقب. إن النظرية السياسية تدعو ما سبق بأنها «مشكلة العموم ذي الاطلاع الناقص»: وهي قضية نوقشت بإسهاب في الولايات المتحدة الأمريكية في عقد العشرينيات من القرن الماضي من قبل الصحفي التهكمي والتر ليبمان (Walter Lippmann) والفيلسوف المثالي جون ديوي (John Dewey). وفي بداية الستينيات كان لا يزال هنالك بعض التناول لهذه القضية من خبراء السياسة الأمريكيين. أمثال شاكتشنايدر (Elmer Eric Schattschneider) الذي يقول:

والتمويل الإعلان. أما النمط البريطاني فارتكز على إدارة حكومية-شعبية مشتركة. وتوجيه متنوع الغايات. وتمويل يأتي من ضريبة خاصة. (المترجم)

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

إذا بدأنا بالتعريف الشائع للديمقراطية (أي حكومة الشعب)، لا تمكن الحيلولة دون بروز بعض الاستنتاجات المتشائمة جدا حول فاعلية الديمقراطية في العالم الحديث. وذلك لأنه من المستحيل حدوث المصالحة بين المفاهيم التقليدية لما ينبغي حدوثه في النظام الديمقراطي وبين الحقيقة التي تقول بأن عددا هائلا جدا من الناس لا يبدو عليهم أنهم على اطلاع كبير بما يجري على أرض الواقع.

لكن خبراء السياسة أولئك يبدو عليهم أنهم تجاوزوا ذلك تماما في أيامنا هذه، ولتوضيح موقفهم الحالي يقول الخبير السياسي الأمريكي سكوت الثوس (Scott L. Althaus):

على الرغم من الافتراض الدائم بأن تفضيلات المواطن في السياسة هي آراء المنظرين الديمقراطيين، وأن الديمقراطية تتطلب مواطنا شديد الاطلاع، فإن أيا من هاتين الفكرتين تحتل موقعا مهيمنًا في النظريات الديمقراطية المتعارف عليها.

وعندما يعدد الخبير السياسي البريطاني ديفيد هيلد (David Held) نماذج الديمقراطية يذكر تسعة أنماط مختلفة لتفضيلات العموم حول طبيعة الحكومة الديمقراطية، لكن واحدة منها فقط (الثامنة) تتطلب حقا أن يكون المواطن على اطلاع: وهي الديمقراطية التشاركية¹. لكن اتجاها محددًا في علوم الإعلام ينظر إلى الديمقراطية التشاركية على أنها لا توجد إلا كنوع من الديمقراطية الخيالية، وهذا الاتجاه، وافتراضاته، أسهم في تشكيل مفردات خدمة الإذاعة الموجهة للعموم. وهذا يعبر عنه القول: «تتمثل الحاجة، من وجهة نظر مصلحة العموم، في مصدر للمعلومات تتوفر فيه الحيادية والموثوقية»، بحسب تعبير اندرو غراهام (Andrew Graham) شريك غافين دافيس (Gavyn Davies) في

1) الديمقراطية التشاركية (Participatory Democracy): من الديمقراطية يمارس مباشرة دون الحاجة إلى مجالس تمثيلية (كالبرلمان مثلا) بخلاف الديمقراطية التمثيلية (Representative Democracy). تعالت الدعوات المطالبة بها في ستينيات القرن العشرين، ويعاب عليها أنها غير قابلة للتطبيق في المجموعات التي يتجاوز عدد أفرادها 500 شخص. (المترجم)

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

تأليف كتاب (تمويل البث)، وكأنه لم يلتق بأحد من وكالات الأنباء والشبكات التلفزيونية الكبرى طيلة سنوات عمله كخبير اقتصادي.

هل اللامبالاة تتطلب معلومات؟ هل تحتاج الديمقراطية إلى معلومات كي تتحرك عجالاتها؟ ثمة رأي للمحافظين الجدد يعبر عنه صامويل هنتنغتون (Samuel Huntington) بأن «العمل الفعال لنظام سياسي ديمقراطي يتطلب بعض اللامبالاة وعدم التدخل». أي من جهة العموم، ومضمون كلامه يعني أن الديمقراطية لا تحتاج إلى المعلومات. وفي بريطانيا، يبدو أن الحكومة تستمر على المستويين المحلي والأوروبي في فرض الضرائب وتنظيم التجارة وجمع النفايات وتحصيل غرامات توقف السيارات بطريقة شديدة الشبه لتعاملها مع نقص المعلومات.

إن ممارستنا للديمقراطية تكاد تقتصر على صندوق الاقتراع، ونقوم بذلك في مواعيد تفصل بينها مدة طويلة. فلقد أدليت بصوتي في خمسة انتخابات عامة منذ أن بلغت الثامنة عشرة، ولم يتغير الحزب الحاكم غير مرة واحدة، وبقيت قيمة صوتي على حالها سواء شاهدت الأخبار أم لم أشاهدها، أو انتميت إلى حزب سياسي أم اكتفيت بالتحليل والمقارنة بين البيانات المختلفة غير المفروضة. وبهذا أكون قد قمت بعمل غير عقلائي تقريبا وفق رأي الخبير السياسي الأمريكي جيفري فريدمان (Jeffrey Friedman) الذي يقول:

إن من يحاول أن يكون على اطلاع جيد رغم تضائل فرص وجود أهمية لرأيه (من خلال الاقتراع)، لا بد أنه يفعل ذلك إما لأسباب غير عقلانية مهمة، كالواجب المدني المفترض؛ أو بسبب الجهل بفرص إمكانية تحقيق التغيير عبر التصويت، أي أنه عاجز عن الترجيح العقلاني لهذه الفرص مقابل أن يكون على اطلاع جيد.

لا أعتقد شخصيا أن هنالك من يختلف معي في ملاحظة أننا لا نعيش في نظام الديمقراطية التشاركية. ومن الأمور المترتبة على عدم العيش في هذا النظام أن حاجتنا

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

من المعلومات معتدلة تماما في الحقيقة. ولكن خدمة الإذاعة للعموم تبنت مبدأ إعلام المواطن كتبرير لدخولها سوق المنافسة على نطاق واسع. وإليك إفادة (بي بي سي) أمام لجنة مراجعة ميثاقها عام 2004:

إننا نهدف إلى إشراك الكل في بريطانيا بأخبار ومعلومات محايدة ودقيقة. وسوف نساعد على الارتقاء بفهم العموم للقضايا المعقدة. وهذا من الأمور الأساسية للديمقراطية الفاعلة.

إشراك؟ فاعلة؟ يلاحظ الخبير الاقتصادي مارك ارمسترونغ (Mark Armstrong) في تحليله لخدمة الإذاعة للعموم بأن هنالك «بعض المفارقة في استعمال الوسيط التلفزيوني البعيد عن المجتمع في محاولة بناء روح المجتمع». ولكن المفارقة بعيدة عن ذهن كارولين ثومسون (Caroline Thomson) المسؤولة عن تجديد ميثاق البي بي سي. فهي تقول بأن من بين الغايات الثلاث للبي بي سي، وهي مؤسسة تأسى ضخامتها أن تكون لها غاية واحدة. هي دعمها «لليبرالية البريطانية من خلال تقوية المواطنين بالمعلومات اللازمة لتكوين خيارات ديمقراطية مطلعة من خلال أخبار موثقة ومحايدة».

إذن، وليلة بعد ليلة، تبني نشرة الأخبار التلفزيونية مكتبة منزلية شاملة تساعد المواطن على اتخاذ القرار الصحيح يوم الانتخابات العامة. وما أن تسقط ورقة الاقتراع في الصندوق، يبقى على المواطن أن يشاهد 1872 نشرة أخبار من أجل الانتخابات التي تليها. فهل من أجل هذا السبب يصار في الحقيقة إلى توظيف الآلاف وإنفاق الملايين والمخاطرة بالأرواح؟

ربما يقدم الصحفيون وصفا أفضل للدور الذي يقومون به؛ حيث تقول الدعاية الإعلانية لبرنامج (نيوزنايت) في قناة (بي بي سي 2): «نسال الأسئلة القاسية ونحمل السلطة المسؤولية». ولكن أليس ذلك من واجب البرلمان وممثلينا المنتخبين؟ وواجبنا نحن، كناخبين، كل عدة سنوات؟

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

إن المعلومات التي تقدمها نشرات الأخبار التلفزيونية للناخبين تتجاوز على نحو بعيد الالتزام المحدد الذي تتطلبه الديمقراطية منا. ولتوضيح هذه النقطة أكثر نقول: إن النظام الديمقراطي ذاته الذي يفترض به أنه يحتاج إلى مواطنين مطلعين لانتخاب صناع القوانين في البرلمانات والمجالس والمحافظات. لا يعد هذا النظام طريقة مناسبة لاختيار المشرفين على وزارة الاتصالات (الأوفكوم) أو مجلس أمناء البي بي سي. إن الولاية نفسها على خدمة الإذاعة للعموم، والتي يتمثل مبررها المدني الأعلى على ما يبدو في إعلام العموم إلى حد يتمكنون فيه من اتخاذ قرارات ديمقراطية. هي في أساسها أمر غير ديمقراطي.

ليس للديمقراطية خارج نطاق الحكومة غير تطبيقات محدودة جدا في مجتمعنا. والولاية المشتركة لا تقوم في الحقيقة بممارسة الديمقراطية. فلم يكن عبثا اتخاذ مارغريت ثاتشر للاقتراع حول الإضراب سلاحا لها في نزع سلاح نقابات العمال في بريطانيا؛¹ وذلك لأن الاقتراع يتطلب استثمارا للوقت والموارد لا يقدر عليه إلا قلة من الأشخاص والمنظمات. لكن وفي مسرحية مروعة طالت أخلاقيات الخدمة العامة أقدم منتجو برامج التسلية التلفزيونية ومشاهدوهم على إرسال دعمهم لقائمة من الشخصيات ضمت كارول ثاتشر. ابنة مارغريت ثاتشر التي لم تكن قد التأمت جراحها بعد من هجوم متوحش.

قد تكون الديمقراطية قد ثبتت قدميها على نحو ضئيل في البرامج التي تحظى بالشعبية، ولكن إذا ما أخذنا برامج الأخبار بعين الاعتبار، فإن المبدأ القائل بأن «المواطن يحتاج إلى معلومات تتعدى المتاح» يبقى مبدأ يدافع به عن الصحافة الموجهة للعموم. ولكن إذا حصل ذلك المبدأ على شيء من الدعم من النظرية السياسية، فمن أين جاءه

1) خاضت مارغريت ثاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا (1979-1990)، حربا ضد نقابات العمال التي كانت، بحسب رأيها، تمثل «العدو الداخلي». واستطاعت شل حركة هذه النقابات طوال ما يقرب من 20 عاما. وذلك عبر منع أي إضراب لا يتقرر عبر الاقتراع. (المترجم)

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

ذلك؟ من أين جاءت الحاجة إلى معلومات موثقة من أجل عيش حياة طيبة؟ لقد تناول هذا الأمر عالم الاجتماع مايكل سكودسون (Michael Schudson) في كتاباته، وأرجعه إلى أواخر القرن التاسع عشر: لكن المؤرخ ريتشارد براون (Richard Brown) يعود به في الزمن إلى القرن السابع عشر: أما أنا فأتجرأ على القول بأنه يعود إلى أقدم من ذلك... إلى البداية الأولى في الحقيقة.

يبدأ إنجيل يوحنا بالنص التالي: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة هو الله» بحسب ترجمة ويكلييف، وهذا النص انتشر مع الأناجيل جميعها بشكل شفهي باتفاق الخبراء في العصر الحديث، وكان جون ويكلييف¹ ومن تلاه من المفكرين يحاولون تسريع عملية الانتشار، لكن أجندة معينة كانت تحتل أذهانهم: فمن خلال الادعاء بأن السلطة الدينية مستمدة من النص المقدس كانوا بذلك يشنون هجوما سياسيا على أقوى مؤسسة عالمية اجتماعيا وفكريا في ذلك الوقت: ألا وهي كنيسة العصور الوسطى. فمن يمتلك منفذا مباشرا إلى الكتاب المقدس من خلال الترجمة يحوّل علاقة الفرد بربه لتتوجه إلى غيره من المؤمنين؛ وبعبارة موجزة: من شأن ذلك أن يحث المؤمنين على إعادة النظر في حياتهم وأساس السلطة الدنيوية... إن ذلك يحث على القيام بفعل ما.

كانت الكنيسة إبان العصور الوسطى ذات سلطة تضاهي سلطة الحكومات الحديثة؛ فأشرفت على التعليم والصحة، وقامت على عاتقها مشاريع عامة ضخمة، وكان لها أنظمتها الخاصة للضرائب وإقامة العدل. لقد أشرفت الكنيسة حينها على حياة الناس بشكل شامل، من المهد إلى اللحد. وكما هو حال أي منظمة مفرطة الاتساع، رغبت الكنيسة بحق في أن تحظى بقبول غير متردد من قبل أعضائها ولم ترغب بالمتحمسين

1) جون ويكلييف (John Wycliffe) - (1330-1384): فيلسوف وعالم دين إنكليزي؛ دخل في صراع البابا مع ملك إنكلترا إدوارد الثالث فأيد حق البرلمان في الحد من سلطة الكنيسة؛ كما عارض كنيسة لندن بأرائه وأفعاله التي ناقضت المبادئ التقليدية للدين المسيحي. حيث أنكر معجزة تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وقال بإمكانية ارتكاب رجل الدين للذنوب، وقام بترجمة الكتاب المقدس من اللاتينية إلى الإنكليزية. كان لأفكاره دور كبير في ظهور الحركة البروتستانتية في ما بعد. أمرت الكنيسة بإخراج رفاته وحرقها بعد أكثر من أربعين عاما من وفاته. (المترجم)

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

في المشاركة. وكان الكتاب المقدس في غضون ذلك بيانا بالالتزام الناس بالاعتراف بحق الكنيسة في التدخل دون أن يعدهم مقابل ذلك بخدمات عامة أفضل أو ضرائب أقل. إنما مجرد الخلود في الحياة الآخرة؛ فعوضاً عن تمويل إنشاء جامعة. ما رأيك بكنيسة جديدة لمريم العذراء؟ وعوضاً عن مقعد في مجلس النواب. ما رأيك بمقصورة مشتركة في مملكة السماء؟

لم يوافق ويكلييف ورفاقه على هذه السيرة؛ إذ كانوا يرون بأن العموم يستحقون أن تصلهم الأخباراً مباشرة. وكانت الأخبار هي النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس (الفولغيت Volgate). فيما أن الكتاب المقدس كان مكتوباً بلاتينية دقيقة. كان من الطبيعي أن يستحيل عملياً على المؤمن العادي أن يقرأه لنفسه. لذلك قام ويكلييف ورفاقه بترجمته إلى الإنجليزية. وإذا كان يمكن جعل الرب يتكلم الإنجليزية. فإن الإنجليزي قد يتمكن من سماعه بصورة أفضل. إن هذه القصة تؤيد دور المعلومات في تحويل المجتمع. وإذا كنت لا تصدقني. فأليك تلخيصاً لحجج معارضي ترجمة الكتاب المقدس من أحد معارضي ويكلييف:

إن الترجمة... سوف تؤدي إلى ظهور عالم يفضل فيه المكلف التعليم على التعلم. وتتكلم فيه النساء بالفلسفة ولا يخفن من وعظ الرجال. ويتجرأ فيه ابن الريف على التعليم. إن الترجمة ستفقد القساوسة الطيبين وجاهتهم. وإذا ما ترجم كل شيء فإن التعليم الديني والصلوات والشعائر ستعرض للرفض؛ وسيُنظر المكلف إلى رجال الدين وعلومهم ذاتها نظرة ازدراء؛ وسيعرض رجال الدين إلى الاضمحلال. وتندلع موجة لا تنتهي من البدع. حتى أن المكلف ذاته لن يستفيد لأن إخلاصه يتحسن في الواقع بجهله لمعاني المزامير والصلوات التي يرتلها... إن الترجمة سوف تعني نهاية جزء عظيم من مملكة المسيح... اللغة اللاتينية.

(1) (الإنجيل) كلمة سريانية معناها (البشارة) أو (الأخبار الجيدة). (المترجم)

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

وبعبارة أخرى، يقول هذا المعارض أن الترجمة سوف تؤدي إلى تهديم المجتمع.

بعد هذا السرد التاريخي قد يخيل إليك أنني قد ابتعدت عن مناقشة رأيي بشأن الصحافة الموجهة للعموم وأنني على وشك سرد أحداث فترة الإصلاح في أوروبا. فلتتوقف معي هنيهة. إن مرادي من ذكر ما قام به ويكلييف في خضم نقاش حول الأخبار هو ما يلي: لقد آمن ويكلييف بأن النفوذ المباشر إلى الكتاب المقدس أمر ضروري لخلاص الفرد. واعتقد بأن العموم يستحقون الأخبار من أجل تغيير حياتهم وحفظ أرواحهم. إن أفكار ويكلييف وربطها بعد ذلك باختراع الطباعة بالحروف المتحركة يعني بأن الكتاب المقدس سبق خدمة الإذاعة للعموم في مسعاها بعدة قرون، وربما تساوبا بالنجاح المحدود الذي حققاه. ولو كان ويكلييف موجودا في عصرنا هذا فلا شك بأنه سيكون خائب الظن حين يرى بريطانيا لا تزال على كنيستها الخاصة بها وإن تغيرت المسميات. أما الثورة الأخلاقية التي أمل بتحققها فعليه أن ينتظر أكثر لحدوثها.

دعونا ننتقل هنا إلى ضواحي باريس عام 1830؛ لنجد ثورة قامت للتو بتنصيب ملكية دستورية. ومحامي ادعاء شاب طموح، يدعى غوستاف دوبومونت (Gustave de Beaumont)، يتشارك شقة مع زميله في العمل. يقوم هذا المحامي المتحمس للسفر بإقناع وزارة الداخلية الفرنسية بأن ترسله في رحلة تدوم 18 شهرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإعداد تقرير حول نظام السجون فيها. فينطلق في مسعاها يرافقه زميله في رحلة ممتعة يتقصيان فيها الحقائق من نيويورك مرورا بالاباما وصولا إلى جبهة الحرب مع الهنود الحمر. وبينما كان دوبومونت يقصر تركيزه على سياسة العقوبات، كان زميله مأخوذا بالديمقراطية «ميولها، شخصيتها، تحيزاتها، ورغباتها». ودون ملاحظاته في كتاب يؤيد ما رآه بأفضل ما يمكنه، مما أكسبه أقصى إعجاب لدى الأمريكيين. وإليك شيئا مما جاء في هذا الكتاب: (الديمقراطية في أمريكا) لألكسي دوتوكفيل (Alexis de Tocqueville):

عندما لا يعود الناس متحدين مع بعضهم البعض بروابط قوية دائمة، يصبح من

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

المستحيل إقامة تعاون بين أي عدد كبير منهم ما لم تستطع إقناع كل فرد منهم بأن مصلحته الفردية تفرض عليه أن يتطوع لتوحيد جهوده مع جهود الآخرين جميعهم. وهذا لا يمكن تحقيقه بشكل اعتيادي ومريح إلا من خلال (الإنجيل): فلا شيء غير ذلك بإمكانه أن يلقي الفكرة ذاتها في ألف عقل في اللحظة ذاتها.

في الحقيقة، ربما تكون قد حزرت بأن دوتوكفيل لم يكن يتحدث عن (الإنجيل)، فالكلمة التي وردت في النص كانت (الصحافة). ورغم أن دوتوكفيل لم يكن أول من أورد هذه الملاحظة، فإن ملاحظاته تشير بوضوح إلى أن نقلة حدثت بين عالم (الإنجيل) وعالم الصحافة. ويعبر الصحفي الهولندي، والأكاديمي لاحقاً، بين نابين (Ben Knapen) عن ذلك بقوله:

كل من يعجز أو يرغب عن استخراج إرشادات اجتماعية سياسية من الكتاب المقدس، أو الله، أو البابا، ينبغي عليه أن يحصل عليها من الخطاب المشترك.

إذن، ففي عالم تعرض فيه الكتاب المقدس إلى تحدي الصحافة، هل كان هنالك من يهتم بفكرة تولى الصحافة لمسؤولية الكتاب المقدس في تغيير حياة الناس؟ بالتأكيد!

كان هنري هيذرينغتون¹ (Henry Hetherington) مهيناً لإكمال ما بدأه ويكلييف. وفي وصيته الأخيرة أنكر هيذرينغتون وجود الرب، ورفض الدين باعتباره هراء خرافياً وطلب دفنه في أرض غير مباركة من الكنيسة، لذلك فمن غير المرجح أنه شارك ويكلييف التزامه بالدين المسيحي.

ظهر أهم كتابات هيذرينغتون (حارس الفقير) تحت عنوان (المعرفة قوة). ولكي تكوّن فكرة عن ماهية تلك «المعرفة»، إليك ما كتبه محرر الكتاب عام 1834:

(1) هنري هيذرينغتون (Henry Hetherington) - (1792-1849): من قادة الحركة الميثاقية في بريطانيا؛ وهي حركة طالبت بتعزيز الدور الشعبي في الحكم، وكان لها أثر كبير في تكوين الصيغة الحالية للنظام السياسي في بريطانيا. ويعود اسم الحركة إلى الميثاق الذي أرسله اتحاد عمال لندن إلى البرلمان عام 1837 واحتوى على مطالب من بينها: حق الانتخاب لكل ذكر يبلغ من العمر 21 عاماً، والاقتراع السري، وإجراء الانتخابات البرلمانية كل عام. (المترجم)

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

المعرفة الوحيدة التي يمكن أن تساعد الناس العاملين هي التي تجعلهم أكثر تبرما بحالهم، وتشعرهم أكثر بأنهم عبيد. هذه هي المعرفة التي سوف نعطيهم...

على الرغم من هذا الخطاب الملتهب، لم يكن هيذرينغتون يدعو إلى ثورة عنيفة، إذ كان يعتقد، كما ويكلييف، بأن المعلومات حافز على التغيير، ولكن في عالمه كانت الصحافة هي المؤهلة للقيام بهذا الدور. وكما تذكر مؤرخة الصحافة باتريشيا هوليز (Patricia Hollis):

كان التعليم، برأي هيذرينغتون، يمتلك القدرة على إنجاز أمرين في وقت واحد: جعل الناس ناشطين سياسيا، ومنحهم القوة السياسية.

إن اعتقاد هيذرينغتون باستحقاق الناس للأخبار وأنها قادرة على تغيير وضعهم للأفضل لا يمنع من أن تكون أفكاره تشوبها لمسة من أفكار الصحافي بيرز مورغان¹، وذلك عندما وعد قراءه عند إطلاق صحيفته (توبيني ديسباتش Twopenny Dispatch) بأنها ستحتوي:

كل الجواهر والكنوز، والمتعة والتسلية «والأخبار والوقائع». وستزخر بتحقيقات الشرطة حول حوادث القتل والاعتصاب والانتحار والحرائق والإصابات، أصف إلى ذلك المسرحيات والسباقات ومباريات الملاكمة، وكافة أنواع الحوادث المؤسفة. باختصار، ستمتلئ بكل الشرور التي تجعلها رائجة السوق.

أي أنها تحتوي كل شيء ما عدا تفضيلات الأسهم. وعلى العكس من مورغان كان هيذرينغتون لا يقترب من المسكرات، فأدى به رفض شرب البيرة والإصرار على الاكتفاء بالماء خلال شيوخ وباء الكوليرا إلى حصوله على إقامة دائمة في (كينزال غرين)، أقدم مقبرة عامة في لندن. لقد وصف أحد مؤرخي الصحافة هيذرينغتون والناشرين المتشددتين في

(1) بيرز مورغان (Piers Morgan): محرر صحيفة (ميرور Daily Mirror) البريطانية (1995-2004). (المترجم)

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

عصره بأنهم من «كتبوا ليغيروا العالم». لكن إنزالهم بمنزلة آخر ممثلي العصر الذهبي للنقاش المطلع سيزول بأي شكل كان عند قراءة ما كتبوه. لقد كانوا في الواقع واعظين ولكن علمانيين.

لقد طرحت ويكلييف وهيدزينغتون كمثالين بارزين على المدة الطويلة التي استمر بها نوع محدد من النقد الاجتماعي المبني على أن الفرد غير المطلع هو فرد غير منخرط؛ فهذا النوع لا يزال حيا وبصحة جيدة. وإليه ينتمي عالم الاجتماع وخبير الاتصالات هيربرت غانز (Herbert Gans) الذي يجعل من (الديمقراطية والأخبار) عنوانا لهجوم أكاديمي على إخفاقات الصحفيين والصحافة بنقد أبدى في الوقت نفسه حزنه على ضعف وسائل الإعلام. لكن أحد القراء الأذكياء علق على هجوم غانز بقوله: «أليس من الممكن أن مشكلته لم تكن مع الأخبار وإنما مع أحلامه حول كيفية تغيير الأخبار لنا؟».

ليس غانز إلا واحدا من أواخر المنتمين إلى سلسلة طويلة تؤمن بما يلي: لو أن الناس عرفوا الحقيقة! إن فكرة استحقاق العموم في أيامنا هذه لأخبار تلفزيونية كي تزدهر الديمقراطية لدينا تعد من الأفكار التي ليس لها حظ كبير في النظرية السياسية. وكانت على مدى التاريخ أسطورة للمتشددين: فد(المواطن المطلع) جاء بديلا عن (العامل الشريف) الذي جاء بديلا عن (المسيحي الطيب). وفي الجملة التالية يمكنك أن تحذف أي عبارة دون تغيير المضمون: يحتاج العموم إلى معلومات من (أخبار التلفزيون / قراءة الصحف المتشددة / إنجيل مكتوب بلغة شعبية). وخلف كل من الأساطير الدينية والعلمانية يكمن أمل بسيط بأن المعلومات سوف تغير كل من تصل إليه. وهو الإيمان المثير عاطفيا بأن الناس لو استطاعوا رؤية الحقيقة بأعينهم لقاموا بالتحرك الفاعل في صالح الخير. وهذا الإيمان إذا ترجمناه بمصطلحات عصرنا الحالي فسنجده في ثنايا اللغة الرسمية لخدمة الإذاعة الموجهة للعموم والكتابة الأكاديمية عن التلفزيون. وإليك النص التالي كمثال نمطي:

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

يكون التلفزيون جيدا عندما يخلق الظروف المواتية لمشاركة الناس بشكل فاعل في المجتمع؛ وذلك عندما يزودهم بأكثر ما يمكن توثيق صحته من المعلومات... وعندما يخدمهم باعتباره منشطا للعملية الديمقراطية.

كُتب هذا النص عام 1990. ومنذ ذلك الحين انتقلت قافلة (المخلص المنتظر) التكنولوجية إلى الانترنت. ولكن الحجة بقيت مع ذلك مأثوفة: المعلومات ⇨ الانخراط ⇨ المشاركة ⇨ مجتمع أكثر ديمقراطية. لنضع هنا السؤال حول إن كانت المشاركة السياسية مهمة أكثر من الاعتناء بأقاربنا المسنين أو اللعب مع أطفالنا أو -لا قدر الله- البحث عن السعادة. لقد عدنا إلى حيث بدأنا مع الديمقراطية التشاركية. والخدمة العمومية تدعي بأن أخبار التلفزيون هي المفاتيح الضرورية لفتح الأبواب الصدئة لأرض الديمقراطية الموعودة.

إن الوسط الذي يمكنه التعايش مع تناقضات بث برنامج للأطفال في سبعينيات القرن الماضي يدعى (لم لا تطفئ تلفزيونك وتفعل شيئا أكثر إمتاعا؟) هو وسط لن يستجيب على الأرجح إلى حجة تستند إلى التاريخ والنظرية السياسية. وكما كانت الكنيسة في العصور الوسطى، فإن الإذاعة الموجهة للعموم معتادة على المهترطين، وهي تعلم أيضا أن لامبالاة العموم. وليست فاعليتهم. عامل مؤثر جدا في دوام المؤسسات.

إن كلا من دواعي وجوب تقديم الصحافة التلفزيونية كخدمة عامة واعتبار ذلك من الواجبات هي أساطير مريحة. فالدواعي تجعل صحفيي الإذاعة يشعرون بالأهمية. أما كون ذلك واجبا فيجعلهم يتمسكون بتشريعات هذه الصحافة باعتبارها دفاعهم الأخير قبل أن يتم رميهم إلى المجهول. إن الكتب والمجلات والصحف لا تزال جميعها مستمرة في البقاء. وحتى أنها تزدهر. دون ذلك النوع من التدخل الهائل الذي يجري في الإذاعة. كما أن خطاب الإذاعة الموجهة للعموم يحجب ما يراه النقاد إخفاقات مؤسساتية وتنظيمية. وإذا كان للصحافة أن تنجو بإلقاء نفسها في مجرى التلفزيون فذلك يحدث لأن المشاهدين

أسطورة دور الأخبار في إحداث التغيير

يدعمونها سواء بوقتهم أو بمالهم: ودون ذلك سيحتاج المجتمع إلى سوق مفتوحة للمعلومات. وهذه السوق تتطلب تشريعات قاسية كي تعمل عملها بفاعلية. لكن إذا أردنا حقيقة أن نبرر إنفاق نصف مليار جنيه استرليني كل عام لسوق التدخل في التلفزيون. ووجود متنام على شبكة الانترنت. ينبغي صياغة حجة أكثر إقناعاً.

إن الصحافة التلفزيونية رائعة. لكنها ليست متميزة. والاعتماد على الحكايات الأسطورية حول كونها عمود ديمقراطيتنا لا يخدم أغراض العموم أو صحفيي الإذاعة بأي شكل من الأشكال. إن العموم لا يستحقون الأخبار لأن الديمقراطية لا تتطلب تدخلهم والتلفزيون لا يوفر هذا التدخل.